NYROUF

تراث الإنسانية

# السلوك للمقريزى

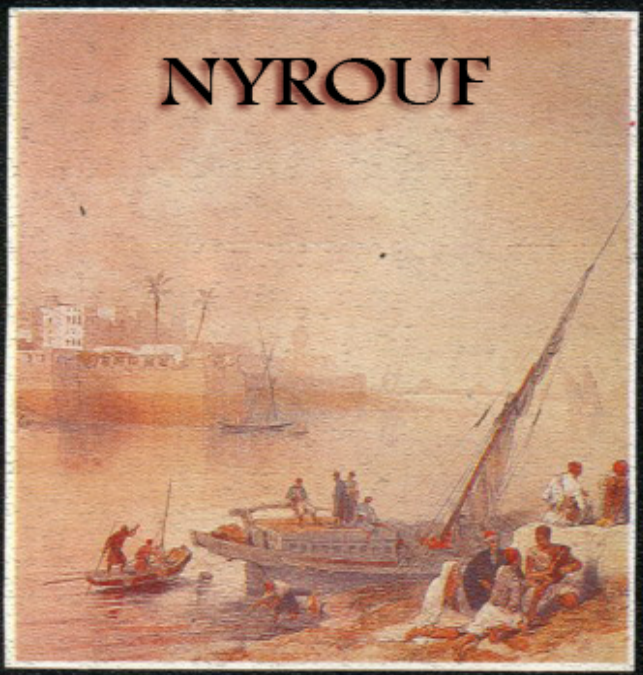


الهيئة المصرية العامة للكتاب

د. محمد مصطفى زيادة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

الانجاز الطباعى والفنى — وزارة الإعلام

محمود الهندى — وزارة التعليم

مراد نسيم — وزارة الحكم المحلى

احمد صليحة — المجلس الأعلى للشباب والرياضة

المشرف العام

د . سمير سرحان

# السلوك
# للمقريزى

د . محمد مصطفى زيادة

---

للمؤرخ المصرى أحمد المقريزى صدارة واضحة لا ريب فيها بين معاصريه وسابقيه ولاحقيه من المؤرخين فى مصر الاسلامية ، وهو صاحب هذا الامتياز النادر المحسود بفضل مؤلفاته التاريخية وغير التاريخية المتنوعة ، وآخرها بحسب ترتيبها الزمنى فى سلك انتاجه الوفير كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

والترتيب الزمنى وحده دون غيره من صفات ومؤهلات يجعل هذا الكتاب فخر مؤلفات المقريزى ، من حيث أنه منتهى مهاراته ، وخاتمة خبراته وقمة تجاربه وأوج نضوجه العقلى والعلمى والفنى فى كتابة التاريخ .

والمقدمة الطبيعية للتعريف الوافى بهذا الكتاب وأسلوبه ومحتوياته ، هى التعريف بادىء ذى بدء بعصر مؤلفه وتاريخ حياته وعديد مؤلفاته السابقة ، لان لكل من هذه العناصر نصيبا ظاهرا ومستترا فى بناء ذلك الكتاب الكبير .

وأحمد بن على المقريزى مولود سنة ١٣٦٤ ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بمحافظة القاهرة الحالية ، فى أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم بدمشق وبعلبك والقاهرة ، أى أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة الفكرية من الطبقة الوسطى على قول المصلطح الاجتماعى فى العصر الحاضر • أما هذه الحوادث فهى فى مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول فى دولة مملوكيـــة ذات بطولات شامخة سالفة ، وأمجـــاد ماضية ملأت عين التـــاريخ فى الشرق والغرب • ولعشرين سنة هى سنوات طفولتـــه ومراهقته وشبابه ، شهد أحمد المقريزى حوادث ذلك العصر الآفل من نافذته الفكرية المصرية البعيدة عن شئون الدولة المملوكية وأمرائهـــا الذين جعلوا من السلاطين الأطفـــال وأشباه الأطفال وقتذاك ، ستارا رقيقا شفافا ساذجا يعملون من ورائه لتحقيق مطامع أميرية فردية ضيقة لم تلبث أن أزالت تلك الدولة المملوكية الكبرى من مسارح التاريخ الى كتبه •

وفى وسط تلك الحوادث الصـــاخبة المتقلبة عكف الشاب أحمد المقريزى على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته ، وهى دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ، ودراسة الفقه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ وتقويم البلدان والأدب والحساب • غير أن نظرة عابرة فى مؤلفاته المستقبلة ، تدل دلالة واضحة على

مدى تأثره بمحيطه من الحوادث المضطربة ، ومثله فى ذلك مثل أستاذه عبد الرحمن بن خلدون الذى رأى ما باسبانيا الاسلامية وشمال أفريقيا من تفكك وانحلال وفساد وفتنة ، فالهمه ذلك تاليف تاريخه المسمى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، كما ألهمه كتابة المقدمة المشهورة التى غدت منذ تاليفها أساسا لدراسة تجارب الأمم ، وعوامل التطور فى المجتمع ، وأسباب انهيار الدول ·

وترددت هذه النغمة الاقتصادية الاجتماعية التاريخية فى مؤلفات أحمد المقريزى ، لأسباب أولها عندى أنه تتلمذ لعدة سنوات على ابن خلدون ، اذ جاء هذا العالم المؤرخ الكبير — وهو أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ — لاجئا الى القاهرة من موطنه تونس سنة ١٣٨٢ ميلادية ، ولم يلبث أن عقد خلال اقاماته المديدة بها حلقات دراسية كبيرة مبتدئا بالجامع الأزهر ، ثم المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم الظاهرية البرقوقية بشارع بين القصرين ، ثم لخانقاه البيبرسية بجوار باب النصر الحالى ، وصارت هذه الحلقات الدراسية نواة لمدرسة فكرية تخرج فيها أحمد المقريزى وغيره من معاصريه · والسبب الثانى هو المحيط المملوكى الذى انغمست فيه مصر وأهلها ، على حين عاش سلاطين المماليك وأمراؤهم فى حزبية وعصبية عنصرية انتحارية بين الأتراك والجراكسة مرة ، وبين المماليك المتوطنين والوافدين مرة أخرى · وثمة سبب ثالث وهو أن أسرة المقريزى جاءت الى مصر حديثا

فى حياة أبيه من موطنها فى بعلبك بلبنان الحالية ، ولابد أن امتلأت أحاديث أسرته بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة عليها وبمقارنتها بالحياة فى لبنان ، فتولدت فيه روح الاستطلاع والفحص منذ طفولته ومراهقته وشبابه .

ويرجع اسم المقريزى الى حارة مقريز فى بعلبك ، ولا يسع الباحث هنا الا أن يشير الى المطابقة الحرفية بين هذا الاسم ولفظ مقريزى فى اللغة الايطالية ، حيث يطلق هذا الاسم على جهة بايطاليا قرب روما مما يحتمل معه أن تلك الحارة البعلبكية كانت سكنا لجالية من الجاليات الايطالية الكثيرة التى وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية ، ثم خلفت اسمها بعد خروج الصليبيين وجالياتهم الأوربية من الشرق . ورأيت من حق المقريزى على ، وهو شيخى ـ أن أبحث عن هذه الحارة وموضعها القديم أثناء زيارتى بعلبك ، فلم أستطع أن أتعرف عليها برغم الحاحى فى السؤال ، ولعلها كانت على مقربة من معبد الشمس القديم الباقية آثاره فى بعلبك الحالية ، وهو المعبد الذى جعله الصليبيون حصنا ، وبنت الجاليات الأوربية مساكنها حوله التماسا للأمن والحماية والتجارة .

ولا ينبغى هنا أن يتسرب الى الذهن أن المقريزى من سلالة ايطالية لأن آباءه وأسلافه معروفون ، فجده لأبيه من كبار المحدثين الحنابلة وينتسب الى الفاطميين على

قوله ، وجده لأمه محدث كبير اسمه ابن الصايغ الحنفى ، وهو الذى كفل تعليمه لضيق حال أبيه على المقريزى فيما يبدو ، قبل أن يصبح هذا الأب من أصحاب الأملاك والعقار . ثم أن المقريزى كما قلت فى العبارة الافتتاحية هنا جاء من أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم وهو مالا ينتظر أن تشتغل به أسرة من الأسرات الأجنبية الأصل التى يشتغل أبناؤها عادة فى المهن والصناعات والحرف ، وثمة دليل ثالث ، أن المؤرخ السخاوى الذى اشتهر بتعقب أخبار السالفين والمعاصرين ، لم يذكر شيئا عن هذا الاحتمال البعيد مع ماهو معروف عن السخاوى من الغرام بالنهش فى أصول الناس وأسرارهم ، ولاسيما أهل صناعته من المؤرخين .

والتحق أحمد بن على المقريزى بالخدمة الحكومية بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من أهل القلم والمعرفة ، وهى التسمية المميزة لهذه الطبقة من طبقة أهل السيف وهم المماليك وحدهم ، دون غيرهم من سكان البلاد المصرية . وأول عهد المقريزى بالخدم الحكومية كأبيه من قبله ديوان الانشاء بالقلعة ، وهو الديوان الذى يقابله فى العصر الحاضر وزارة الخارجية ، فعمل سنة ١٣٨٨ موقعا ـ أى كاتبا ـ وهى وظيفة لا يبلغها وقتذاك سوى أصحاب المؤهلات العالية والموهبة والمعرفة والتفوق فى اللغة والأدب والتاريخ وتقويم البلدان والحساب .

ثم تعين المقريزى نائبا من نواب الحكم ـ أى قاضيا ـ عند قاضى القضاة الشافعية ، بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته وتحوله عن مذهب الحنفية الذى نشأ فيه ، ثم صار المقريزى امامًا لجامع الحاكم الفاطمى وهى وظيفة كبيرة فى ذلك العصر ، وتولى بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة المؤيدية ، وهى وظيفة يقابلها فى المصطلح الجامعى فى العصر الحاضر وظيفة أستاذ ذى كرسى ، وربما كان تعيين أحمد المقريزى فى تلك الوظيفة التعليمية العالية بتوصية خاصة من أستاذه عبد الرحمن بن خلدون لدى السلطان برقوق .

ثم انتقل المقريزى من التدريس الى الحسبة حين عينه السلطان برقوق سنة ١٣٩٨ محتسبا للقاهرة وللوجه البحرى ، فانتقل بذلك من دائرة المشتغلين بالعلم والتعليم الى دائرة الادارة والاختلاط بمختلف طبقات المجتمع ، ولا سيما أرباب الأسواق والمتاجر وأصحاب المهن والصنايع . ذلك أن وظيفة المحتسب التى يقابلها فى العصر الحاضر عدة وظائف وزارية شملت وقتذاك النظر فى الأسعار الجارية ، وأحوال النقود وضبط الموازين والمكاييل والمقاييس ومراقبة الآداب العامة ، ونظافة الشوارع وتنظيم حركة المرور بها ، مع الاشراف على المدارس والمدرسين والطلاب ، والعناية بالمساجد والحمامات والقياسر والوكالات ، فضلا عن مراقبة

أصحاب الصناعات العالية من الأطباء والصيادلة والمعلمين أى المهندسين المعماريين . ويضاف الى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة فى اختصاص المحتسب أحوال الباعة الجوالة والمتعيشين والشحاتين والمتعطلين الذين كانوا خطرا على الأمن ، ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسئولياتها أن أحمد بن على المقريزى الذى تعين عليها بأمر السلطان برقوق ، لابد أنه اشتهر وقتذاك بالكفاية والدقة فى الادارة والأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، غير أنه لم يلبث أن تنحى عن هذه الوظيفة مرتين فى عامين متتاليين ، اذ ضاق بمسؤلياتها التى شغلت وقته ليلا ونهارا ، وصرفته عن القراءة وتطلبت منه الجلوس فى دكة المحتسب للفصل فى شكاوى السوق والسوقة ، وتوقيع العقوبات على المخالفين ، واصدار الأوامر الى العرفاء والأعوان والنقباء ، مع العلم بأن وظيفة محتسب القاهرة شملت الوجه البحرى كله . وحوالى ذلك الوقت تزوج أحمد المقريزى وأنجب ، اذ المعروف أن بنتا له ماتت فى سن السادسة بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣ . وهذا الطاعون بالذات هو الذى دفع أحمد المقريزى الى تأليف كتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة ، كما دفعه ضيقه بوظيفة الحسبة ومسئولياتها الى تأليف كتاب شذور العقود فى ذكر النقود ، وكتاب الأكيال والأوزان الشرعية . ويبدو أن هذه الكتب الصغيرة كانت أوائل عهد المقريزى بالتأليف ، كما يبدو من

محتوياتها مدى تأثير عبد الرحمن بن خلدون فى التكوين الفكرى عند تلميذه الموهوب ٠

ثم عاد المقريزى الى دائرة المشتغلين بالتدريس مرة أخرى ، حين عينه السلطان برقوق سنة ١٤٠٨ مدرسا للحديث بالمدرستين الاقبالية والأشرفية بدمشق ، مع التنظر على أوقاف المارستان ـ أى المستشفى ـ النورى بها ٠ ثم عينه السلطان فرج بن برقوق نائبا للحكم ـ أى قاضيا ـ بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المتعينون على الأوقاف الدمشقية قضاة بها ٠ لكن المقريزى أبى قبول هذا الشرف على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا ، ويظهر أنه سئم الخدم الحكومية وضاق بتكاليفها وأعبائها ، وأنه ملك من الموارد المالية التى جاءته من الوقف ، وما ورثه من الأملاك عن جده لأبيه بدمشق نفسها ما أغناه عن تضييع وقته فى كسب العيش عن طريق مجالس الحكم والقضاء ٠

ويظهر كذلك أن المقريزى استطاع أن يكتب أول مؤلفاته الطويلة فى هذه السنوات الدمشقية من حياته وهو كتاب السيرة النبوية الذى عنوانه امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأخوال والأتباع ، وهو كتاب مشحون بصفحات متتالية من مؤلفات السابقين فى تاريخ السيرة ٠ ومما يرجح نسبة هذا الكتاب الضخم الى تلك السنوات قول المقريزى فى مقدمته « أنه غير جميل

بمن تصدى للتدريس والافتاء وجلس للحكم بين الناس وفصل القضاء ، أن يجهل من أحوال رسول الله ٠٠ وجميل سيرته ٠٠ ما لا غنى عن معرفته » ٠ والى تلك السنوات الدمشقية من حيـــاة المقريزى يرجع كذلك كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، وهو كتـــاب مستمد من فكرة العصبية القبليـــة التى بنى عليهـــا عبد الرحمن بن خلدون معظم نظرياته فى فلسفة التاريخ٠

ثم رحل أحمد المقريزى عن دمشق بعد اقامته بهـا نحو عشر سنوات وعاد الى القاهرة ليتوفـــر على الدرس والتدريس والتأليف الذى وضحت موهبته فيه بما أخرجه من المؤلفات الصغيرة ٠ غير أنه تراءى له أن يحج أولا ، كأنما أراد أن يفصل بين مرحلتين من حياته ، ومن أجل ذلك رحل المقريزى وأسرته حاجا الى مكة التى عرفها هو قبل ذلك وجاور بها مدة قصيرة ابان طلبه العلم ٠ على أنه ظل مقيما بمكة هذه المرة نحو خمس سنوات واشتغل فى تلك السنوات المكية من حياته بتدريس الحديث ، وربما يرجع تأليف كتابه الذى عنوانه « الكلام ببنـــاء الكعبة بيت الله الحرام » ، وكتاب « ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى » وكتاب « التبر المسبوك فى ذكـــر من حج من الخلفاء والملوك » ، وكتاب « وصف حضرموت العجيبة » الى هذه المدة المكية من حياة المقريزى ، فانها كلها كتب صغيرة خاصة بمحيط بلاد العرب ، وأخبارها ، ومن الراجح

أن الكتاب المسمى « الاعلام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام » يرجع كذلك الى هذه المجموعة المكية .

ثم استقر أحمد المقريزى بعدئذ بالقاهرة ، حيث أمضى بقية حياته الطويلة بحارة برجوان ، التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات القاهرية فى العصور الوسطى . ويظهر أنه جعل من داره بها مكانا لدراسة تلاميذه وللتأليف الكثير فى مختلف نواحى دراسته . وبدأ المقريزى نشاطه العلمى فى هذه المرحلة من حياته بكتاب تاريخ القاهرة المسمى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وهو الكتاب المشهور باسم الخطط لأنه توفر فيه على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع ودروب وقياسر وحمامات ورباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم رجال الدول ونظم الحكم فى مختلف العصور . وافتتح المقريزى هذا الكتاب الزاخر بعبارة ناطقة بوطنية مصرية دافقة ، فقال : « وكانت مصر هى مسقط راسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وحامتى وموطن خاصتى وعامتى .. » . غير أنه يبدو من حجم هذا الكتاب أن المقريزى اعتمد فى تأليفه على كتاب صنفه قبله المؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدى ، فنقل عن مسوداته بالجملة دون أن يشير اليه بكلمة واحدة . ولذا وصف عبد الرحمن السخاوى هذا الكتاب

بقوله ساخرا أنه كتاب مفيد لكون المقريزى « ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزاد عليها زوائد غير طائلة » . وخشى المقريزى مما سوف تجلبه هذه التهمة من اساءة وأذى لسمعته العلمية ، بدليل مبادرته بالتلميح الانكارى اليها فى مقدمته لهذا الكتاب ، حيث قال « حسب العالم أن يعلم ما قيل ويقف عليه » . غير أن ذلك التلميح لم يمنع بعض المعاصرين من ترديد هذه التهمة ، فرأى المقريزى أن يقطع الطريق على أصحابها بعبارة صريحة فى كتاب آخر من مؤلفاته وهو « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » حيث اعترف بأنه استعان بمسودات الأوحدى ومصادرها فى بناء كتابه ، ودل بذلك على شجاعة أدبية شبه مفقودة فى العصر الحاضر .

ويتضح من اتجاه مؤلفات المقريزى بعد ذلك أنه رسم لعمله المستقبل ترتيبا تاريخيا استهدف به أن يكتب تاريخ كل دولة من الدول الاسلامية فى مصر حتى عصره فى مؤلف مستقل . وبدأ المقريزى هذا الترتيب التاريخى بكتاب « البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب » ثم أعقبه بكتاب « عقد جواهر الاسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط » وهو تاريخ لمصر منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية . ثم تلا ذلك كتاب فى الدولة الفاطمية سماه المقريزى « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ، ثم كتب بعد ذلك كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » فى أربعة أجزاء ضخمة ، وهو الكتاب الذى غدا

أساسا لجميع التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ، وحق له أن يكون فخر مؤلفات المقريزى وأن يكون عنوانا لهذا المقال .

ومن الملحوظ أن المقريزى كتب المؤلفات المتقدمة ليكون كلها ذيلا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدولة الاسلامية المصرية فى ذلك الكتاب الكبير . ويظهر أنه عكف أثناء تأليفه هذه الكتب المتقدمة على اعداد المادة التاريخية لكتاب كبير آخر فى التراجم والسير ، وعنوانه « المقفى الكبير » ، وهو كتاب رغب المقريزى أن يجعل منه معجما كبيرا لتراجم حكام مصر ورجالها والواردين عليها ، منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة لديه الى ما قبل عصره . أما كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، وهو الكتاب الذى تقدمت الاشارة اليه ، فقصد به المقريزى أن يكون معجما محليا لشخصيات عصره ، وربما بدأ الكتابة فيه وهو ماض فى ترتيب معجمه الكبير .

وكما جعل المقريزى كتاب المواعظ والاعتبار أساسا تفرعت عليه مؤلفاته التاريخية فى مختلف مراحل التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، فانه استوحى ذلك الكتاب واستلهمه لتأليف كتاب فى التاريخ القديم عنوانه « الخبر عن البشر » ، وهو عنوان يوحى الى الذاكرة بكتاب ابن خلدون .

ثم ألف المقريزى كتاب شارع النجـــاة فى تاريخ الأديان ، وهو أول كتاب مستقل من نوعه فى اللغـــة العربية . وتناول المقريزى بالتأليف موضوعات صـــغيرة مرتبطة بالمجتمع الذى عاش فيه وهى كذلك موضـوعات من وحى كتاب المواعظ والاعتبار ، مثل كتاب الوزارة ، وللمقريزى كذلك كتب صغيرة لا ينتظر الباحث انصرافه اليها مثل المقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنيـة ، وكتاب ازالة التعب والعناء فى معرفة الحال فى الغناء ، وكتاب الاشارة والايماء فى حل لغز الماء ، وربمـــا كان مرجع تأليف هذه الكتب المتباينة الى أيام ولايتـــه وظيفة الحسبة .

وزادت مؤلفـــات المقريزى الكبرى والصغرى على مائة كتـــاب ويتعجب المعاصرون والمتأخرون والمحدثون أن ينسب ذلك العدد الوافر من الكتب الى مؤلف واحد ، وهذا التعجب لا يقتصر على مؤلفات المقريزى ، بل يتعداه الى مؤلفات المؤرخين فى مصر فى العصور الوسطى وغيرها من البلاد فى تلك العصور فى الشرق والغرب . أما تفسير ذلك فهو أن بعض الكتب الصغرى التى كتبهـا المقريزى أو غيره من المؤلفين فى تلك العصور لم تتعد موضـــوعا بذاته أو حادثة بعينها ، وبعض هذه الكتب لا تزيد عن مقالة طويلة فى مجلة شهرية أو ربعية أو نصف ســـنوية فى العصر الحاضر ، وهذا البعض يتسم فى الواقع بالطـابع

الصحفى لتنوير أرباب الدولة وذلك قبـــل أن تصبح الصحافة جزءا من مقومات المجتمع .

ولهذا ينبغى أن تعد الكتب الصغرى عامة بمثابة أول محاولة صحفية لتكوين ما هو معروف باسم الرأى العام فى المصطلح السياسى الحديث .

ولعل أهم المؤلفـات المقريزية الصغيرة التى تقدمت الاشارة اليها كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، وكتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة ، اذ أرجع المقريزى فى الكتاب الأول من هذين الكتابين أمر التنافس على الخلافة فى الدولة الاسلامية بين الأمويين والهاشميين الى عصبيات الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث والحروب المريرة والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعـد كلها أن تكون أسبابا طارئة . أما الكتاب الثانى ، وهو اغاثة الأمة بكشف الغمة فتناول المقريزى فيـــه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور الى زمنه . وأدى به البحث الى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية ، انمـــا هو سوء تدبير الملوك والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد لا نقص النيل أو قلة المطر ، ولا غضب الله على أهل مصر خاصة ، وهو تخريج اقتصادى سليم لم يسبق اليه أحد من المؤلفين فى الشرق الاسلامى أو الغرب المسيحى قبل المقريزى .

وثمة ناحيـــة جديرة بالانتبـــاه في معرض هذه الاشارات العابرة الى بعض المؤلفات الصغيرة للمقريزي ، وهى أنه على حين تموج مؤلفاته الكبيرة بأخبار الخلفـــاء والسلاطين والأمـــراء ، وتؤود بحوادث العزل والولاية وتفيض بالتراجم والوفيات حتى تكاد شـــخصية المؤلف لا تظهر الا بمنظار ، اذ بهذه الكتب الصغيرة تلقى كثيرا من الضوء على هوية المؤلف ، وتدل على بعض ملامح عصره وتوضح سبيل الفهـــم للأحـــوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، وذلك أن المقريزى يعرض فى كتبه الصغيرة مسائل قل أن يستطيع التعرض لها فى حولياته الكبيرة ، ويتحلل من قيود تسجيل الأخبار ، ويجـرؤ على الادلاء بآرائه الخاصة فى أسلوب النصيحة بل يحاول أحيانا أن يعلل ويحلل حادثة بذاتها تعليلا عقليا أو يناقش عيبا من عيوب المجتمع نقاشا حرا . وفى ذلك كله كذلك شرح لشخصية المقـــريزى الذى توفى بالقـــاهرة أوائـــل سنة ١٤٤٢ م .

وبعد هذه الصفحات المحتوية على الضرورى الجوهرى من أوصاف عصر أحمد بن على المقريزى ومحيطه وحياته ومؤلفاته ينتقل هذا المقال انتقالا طبيعيا الى وصف محتوى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ، وأول ذلك مقـــدمة سريعة فى تاريخ السلاجقة الذين تفرع عليهم ســـلاطين الأيوبيين ثم سلاطين الممالك بعدهم فى مصر والشـــام .

ثم انتقل المقريزى من هذه المقدمة المختصرة الى نظام الحوليات الشاملة لعهد كل سلطان من السلاطين ، وذلك بأن دون حوادث كل عام تدوينا مستقلا ، وتحت عنوان باسم ذلك العام بخط كبير ومداد غير مداد المتن ، ثم ختم للحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها فى شىء من الاختصار العامد ، ثم انتقل الى العام التالى فجعل له عنوانا جديدا ، وسجل حوادثه على هذا النمط التقليدى الرتيب ، وهكذا دون أن يؤلف من كتابته موضوعا متصلا ، ما عدا أنه افتتح السنة أحيانا بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها ، وهذا فى الغالب اذا جاء فاتحة السنة موافقة لقيام سلطان جديد ، وحدوث تغيير وتبديل بين موظفى البلاط السلطانى ، واعتاد المقريزى كذلك أن يكتب اسم السلطان الجديد بخط كبير ومداد مخالف ، غير أنه لم يجعل من ذلك وقفة يلخص فيها أو يفلسف ، بل اكتفى بعبارات افتتاحية حاذرة فى أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل الى ذكر الحوادث والأسباب حسب ترتيبها الزمنى على قدر الامكان ، وهكذا الى أن صار الكتاب كلما قرب المؤلف من عصره سجلا يوميا ضافيا بأخبار ما يقع بمصر وولاياتها وجاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى ويتخلل هذا السجل الطويل شىء من أسعار المحاصيل وأحوالها ، أو فيضان النيل أو هبوب ريح سوداء تدفع الأبقار فى الهواء ، أو تفصيلات جدل أدبى ، أو أدوار محنة فقهية ، أو تعديل فى نظم الحكم

والجيش ، أو وصف مسجد أنشأه سلطان أو أمير ، أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة وجواب السلطان عليها ، وذلك فضلا عن الوفيات والتراجم التى تطول أو تقتصر بحسب مزاج المقريزى أو مقاييسه ، وبحسب القيمة السياسية أو الاجتماعية أو العلمية للمترجم له .

والآن يأمل كاتب هذه الصفحات أن يجد القارىء الكريم وقتا لمطالعات كبيرة فى الأجزاء المطبوعة والمخطوطة من هذا الكتاب ، ليقرأ منه ما يشاء ملء شهيته وطاقته ، وليلمح بنفسه ما فى صفحاته بين لحظة وأخرى من ومضات عابرة من شخصية المقريزى ، أو صرخات صامتة من قلمه القوى ، أو نفحات من روح مؤلفاته المتنوعة ولا سيما اغاثة الأمة بكشف الغمة لأنه لا سبيل الى التعريف الحقيقى بذلك الكتاب أو غيره من الكتب الكبرى أو الصغرى الا عن طريق القراءة الشاملة الكاملة ، لمشاركة المؤلف فى تجربته ، فاذا لم تسعف الفرصة لذلك ، فلا أقل من استعراض صفحات نموذجية مختارة ، لمعرفة ما للمقريزى من مقدرات ومهارات فى كتابة الأخبار التاريخية ، أو رسم اللوحات القلمية الواصفة لشخصية من الشخصيات الهامة فى التاريخ المصرى . وربما يكفى الاجتزاء هنا بالصفحات الخاصة بالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، ثم بالصفحات المشتملة على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون من باب الدعوة السريعة الى القراءة المتئدة الواسعة .

## مختارات من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

### ١ ـ جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين وفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ

( ج ١ ، ص ٩٢ ـ ٩٩ )

وأهلت سنة ثلاث وثمانين وقد برز السلطان من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت أول المحرم ، وأقر ابنه الأفضل على رأس الماء ، ونزل بصرى فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا فى آخر صفر . فسار الى الكرك ، فى اثنى عشر ألف فارس ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك ففعل بها مثل ذلك . وخرج الحاجب لؤلؤ على الأسطول من مصر وهو خمسة عشر شينيا ، ليسير الى الاسكندرية . وخرج العادل من القاهرة فى سابع المحرم الى بركة الجب وسار الى الكرك ، فمر على أيلة والتقى مع السلطان على القريتين ، وعادا الى الكرك فنازلاها فى ربيع الأول وضايق السلطان أهلها ، ثم رحل عنها . ونازل طبرية . فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بارض عكا ، ورفعوا صليب الصلبوت فافتتح السلطان طبرية عنوة فى ثالث عشر ربيع الآخر وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا فسار اليهم السلطان ، وكانت وقعة حطين التى نصر الله فيها دينه ، فى يوم السبت رابع عشر . وانهزم

الفرنج بعد عدة وقائع وأخذ المسلمون صليب الصلبوت وأسروا الابرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وعدة ملوك آخرين ، وقتل وأسر من سائر الفرنج مالا يعد كثرة ، ثم قدم الابرنس أرناط وضرب السلطان عنقه بيده ، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاسبتارية . ورحل السلطان الى عكا فنازلها سلخ ربيع الآخر ومعه عالم عظيم .

قال العلامة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى : « كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما ، ذا مساحة فسيحة ، فيه مائة وأربعون دكان بيطار . وعددت عند طباخ واحد ثمانيا وعشرين قدرا ، كل قدر تسع رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق . وأظنها سبعة آلاف دكان ، وليست مثل دكاكين المدينة ، بل دكان واحد مثل مائة دكان ، لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات ، ويقال ان العسكر انتنت منزلتهم لطول المقام ، فلما ارتحلوا غير بعيد ، وزن سمان أجر نقل متاعه بسبعين دينارا ،

وأما سوق البز العتيق والجديد فشىء يبهر العقل . وكان فى العسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة ، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا ، ويسترونه بحطب وحصيرة ، ويقطعون حطبا من البساتين

التى حولهم ، ويحمون الماء فى قدور وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر » .

فلم يزل صـــلاح الدين على محاصرة عكا الى ان تسلمها بالأمان فى ثانى جمادى الأولى واستولى على ما فيها من الأموال والبضائع ، وأطلق من كان بها من المسلمين مأسورا وكانوا أربعة آلاف نفس . ورتب فى كنيستهـــا العظمى منبرا ، وأقيم فيهـــا الجمعة ، وأقطع عكا لابنـــه الأفضل على ، وأعطى جميع ما للداوية من اقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى . وسار العادل بعساكر مصر الى مجد ليابا . فحصره وفتحه وغنم ما فيه . وافتتحت عدة حصون حول عكا ، وهى قيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والنولع والطور . ونهب ما فيها وسبيت النساء والأطفال فقدموا بها سبد الفضاء ، وأخذت سبسطية ونابلس . وكتب السلطان للخليفة بخبر فتح هذه البلاد ، ونزل العادل على يافا حتى ملكها عنوة ونهبها وسبى الحريم وأسر الرجال . ونازل الظفر تقى الدين عمـــر تبنين ، وأدركه السلطان فوصل اليها فى حادى عشر جمادى الأولى، وما زال محاصرا لها حتى تسلمها فى ثامن عشر بأمان ، وجلا أهلها عنها الى صور وتسلم السلطان العدد والدواب والخزائن ، وسار فأخذ صرخد بغير قتال . ثم رحل الى صيداء ففر أهلها وتركوها ، فتسلمها السلطـــان فى حادى عشريه ونازل بيروت وضايقها ثمانية أيام الى أن طلب

أهلها الأمان ، فأجابهم ، واستولى عليها فى تاسع عشريه ، وأخذ جبيل فكان من استنقذ بالله من المسلمين المأسورين عند الفرنج فى هذه السنة مايزيد على عشرين ألف انسان ، وأسر المسلمون من الفرنج مائة ألف أسير .

وهلك فى هذه السنة القومص صاحب طرابلس . وقدم المركيس ـ أكبر طواغيت الفرنج ـ الى صور وقد اجتمع بها أمم من الفرنج ، فتملك عليهم ، وحصن البلد فسار السلطان بعد فتح بيروت وتسلم الرملة والخليل وبيت لحم واجتمع مع أخيه العادل ، ونازلا عسقلان فى سادس عشر جمادى الآخرة ، ونصبا المجانيق عليهـا ووقع الجد فى القتال الى أن تسلم السلطان البلد فى سلخه ، وخرج منه الفرنج الى بيت المقدس بعد أن ملكوه خمسا وثلاثين سنة . وتسلم السلطان حصون الداوية ، وهى غزة والنطرون وبيت جبريل . وقدم عليه بظاهر عسقلان ابنه العزيز عثمان من مصر ووافته الأسـاطيل وعليها الحاجب لؤلؤ . وكانت الشمس قد كسفت قبل أخذ عسقلان بيوم حتى أظلم الجو وظهرت الكواكب فى يوم الجمعة ثامن عشريه .

وسار السلطان ـ وقد اجتمعت اليه العساكر ـ يريد فتح بيت المقدس ، فنازله يوم الأحد خامس عشر رجب ، وبه حشود الفرنج وجميعهم ، فنصب المجانيق ، واقتتل الفريقان أشد قتال ، واستشهد فيه جماعة من

المسلمين . وأيد الله بنصره المسلمين حتى تمكنوا من السور ونقبوه وأشرفوا على أخذ البلد . فسأل الفرنج حينئذ الأمان ، فأعطوه بعد امتناع كثير من السلطان ، على أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية سواء كان غنيا أو فقيرا ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل من الذكور والاناث دينارين ، ثم صولح عن الفقراء بثلاثين الف دينار . وتسلم المسلمون القدس، يوم الجمعة سابع عشرى رجب ، وأخرج من فيه من الفرنج وكانوا نحو الستين ألفا ، بعد ما أسر منهم نحو ستة عشر ألفا ، ما بين رجل وامرأة وصبى ، وهم من لا يقدر على شراء نفسه . وقبض السلطان من مال المفاداة ثلاثمائة الف دينار مصرية سوى ما أخذه الأمراء وما حصلت فيه الخيانة .

والتحق من كان بالقدس من الفرنج بصور ، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقدس ، فأتوه رجالا وركبانا من كل جهة لزيارته ، حتى كان من الجمع ما لا ينحصر . فاقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان وخطب القاضى محيى الدين بن الزكى بالسواد خطبة بليغة دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين ، وانتصب بعد الصلاة زين الدين بن نجا ، فوعظ الناس . وأمر السلطان بترخيم المحراب العمرى القديم ، وحمل منبر مليح من حلب ، ونصب بالمسجد الأقصى وأزيل

ما هناك من آثار النصرانية وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد وبخرت وفرشت ، ورتب في المسجد من يقوم بوظائفه ، وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية . وعادت كنيسة قمامة ، ثم فتحت وقرر على من يرد اليها من الفرنج قطيعة يؤديها . وخرجت البشائر الى الخليفة بالفتح ، والى سائر الأطراف ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا ، وسار العزيز عثمان الى مصر فكان آخر العهد به ، وسار العادل مع السلطان فنزل على عكا أول شهر رمضان ، ثم رحل السلطان منها ونزل على صور في تاسعه ، وكانت حصينة وقد استعد الفرنج فيها . فتلاحقت العساكر بالسلطان ، ونصب على صور عدة من المجانيق وحاصرها . واستدعى السلطان الأسطول من مصر فقدم عليه عشر شواني . وصار القتال في البر والبحر ، فأخذ الفرنج خمس شواني ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان ، وفيها غلظة وانكار أمور ، فأجاب بالاعتذار ، ورحل عن صور في آخر شوال وعادت العساكر الى بلادها . وأقام السلطان بعكا وسار العادل الى مصر . فطرق الفرنج قلعة كوكب ، وقتلوا بها جماعة من المسلمين ، ونهبوا ما كان بها . وأتته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس .

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، اجتمع الشمس والقمر والمريخ والزهرة

وعطارد والمشترى وزحل وأظفار الذئب ، فى برج الميزان أربع عشرة ساعة ، فاجتمع المنجمون كلهم وحكموا بكون طوفان الريح ، وأنه ولا بد كائن وواقع ، فتنقلب الأرض من أولهـــا الى آخـــرها ، وأنه لا يبقى من الحيوان شىء الا مات ، ولا شجرة ولا جدار الا سقط . وكان معظم هذه الحكمة عن بلاد الروم . وأرجفوا بأنها هى القيامة فاتخذ قوم الكهوف والمغائر فى الجبال وبالغوا فى الاعتداد لهول ذلك اليوم . وقال القوم « كتب القدماء كلها أحالت على هذا الاجتماع ، وأن فيه دمار الدنيـــا » وكان ذلك فى مسرى وفى جمادى الآخرة للسابع والعشرين منه وهو يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء الى يوم الأربعاء ، فلم تهب ريح ولا تحرك نيل مصر ، وهو فى زيادته فى مسرى ، ومن العادة أن تهب الريح من العصر الى العشاء فى وجه الماء ، فيقف باذن الله فتكون فيه الأمواج فلم يحدث تلك الليلة ولا ثانى يوم ولا قبلها بيوم شىء من ذلك ، وطلع الناس بالسرج الموقدة على السطوحات لاختبار الهواء ، فلم تتحرك نار البتـــة . وكان أشـــد الناس ارجافا بهذه الكواكب الروم ، فأكذبهم الله ، وسلط عليهم السلطان الملك الناصر صـــلاح الدين يوسف ، فأخذ كبارهم وكسرهم ، وملأ الأرض من الأسرى شرقا وغربا ، وأخذ القدس وأصاب جماعة ممن كان يرجف بهذه الريح آفات ، ما بين موت بعضهم واعتلال بعضهم .

وفيها خرج فى سادس عشر جمادى الآخرة قفل شامى الى مصر ، وهو أول قفل سلك بلاد الساحل ، بلا حق يدفعه ولا مكس يؤديه ، وفيها سار قراقوش التقوى ، واستولى على القيروان ، وحاربه ابن عبد المؤمن سلطان المغرب على ظاهر تونس فانكسر منه ، وأقيمت الخطبة فى ربيع الأول فى تلك البلاد للسلطان صلاح الدين . فجمع ابن عبد المؤمن ، وواقع قراقوش وهزمه ، ففر قراقوش فى البرية .

وفيها أمر السلطان بأن تبطل النقود التى وقع الاختلاف فيها وتضرر العامة بها ، وأن يكون ما يضرب من الدنانير ذهبا مصريا ، ومن الدراهم الفضة الخالصة . وأبطل الدراهم السود لاستثقال الناس الميزان ، فسر الناس ذلك .

## (٢) السلطان الناصر محمد بن قلاون

## ( ج ٢ ، ص ٥٣٧ ـ ٥٤٥ )

وكان يحب العمارة ، فلم يزل من حين قدم من الكرك الى أن مات مستمر العمارة . فجاء تقدير مصروفه كل يوم مدة هذه السنين ثمانية آلاف درهم . وكان ينفق على العمارة المائة ألف درهم ، فاذا رأى فيها ما لا يعجبه هدمها كلها وجددها على ما يختار ، ولم يكن من قبله من

الملوك في الانفاق على العمارة كذلك ، بل أراد المنصور قلاون مرة أن يبنى مصطبة عليها رفرف يقيه حر الشمس ليجلس عليها ، فكتب له الشجاعى تقدير مصروفهـا أربعة آلاف درهم ، فتناول الورقة من يد الشجاعى ومزقها وقال « أقعد فى مقعد بأربعة آلاف ؟ ، انصبوا لى صوانا اذا نزلت ، ولا أخرج من بيت المال لمثل هذا شيئا » . وكذلك كان الظاهر بيبرس ومن قبله لا يسمحون بالمال ، وانما يدخرونه صيانة وخوفا ، ولم يعرف لأحد منهم أنه أنعم بألف دينار جملة واحدة .

واستجدت فى أيامه عمائر كثيرة : منها حفر خليج الاسكندرية من بحر فوة فى مدة أربعين يوما ، عمل فيه فوق المائة ألف رجل من أهل النواحى ، فاستجد عليه عدة سواقى وبساتين فى أراضى كانت سباخا ، فصارت مزارع قصب السكر والسمسم . وعمرت هناك الناصرية ، ونقل اليها مقدار بن شماس بأولاده وعدتهم مائة ولد ذكر . واستمر الماء طول السنة بخليج الاسكندرية . وأنشأ الميدان تحت القلعة ، وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار ، ولعب فيها بالكرة فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية ، وعمر فوق القصر الأبلق ، وأخرب البرج الذى عمره أخوه الأشرف خليل على الاصطبل ، وجعل فوقه رفرفا ، وترك أصله من أسفله وعمر بجانبه برجا نقل اليه المماليك . وغير باب النحاس بالقلعة ،

ووسع دهليزه ، وعمر فى الساحة قدام الايوان طباقا للأمراء ٠٠ والخاصكية ، وغيره الايوان مرتين ، وفى المرة الثالثة أقره على ما هو عليه الآن ، وحمل اليه العمد الكبار من بلاد الصعيد ، فجاء من أعظم المبانى الملوكية ٠ وعمر بالقلعة دورا من باب القله من القلعة بابا ثانيا ، وعمر حارة مختص وعمر الجامع بالقلعة والقاعات السبع التى تشرف على الميدان وباب القرافة لأجل سكنى سراريه ، وعمر المطبخ وجعل عمائره كلها بالحجارة خوفا من الحريق ٠ وعزم أن يغير باب القلعة المعروف بالمدرج ، ويعمل له دركاه ، فمات قبل ذلك ، وعمل فى القلعة حوش الغنم وحوش البقر وحوش المعزى وجاير الأوز وغير ذلك ، فأوسع فيها نحو خمسين فدانا ٠ وعمر الخانكاه بناحية سرياقوس ورتب بها مائة صوفى لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج اليه ٠ وعمر القصور بالقرب منها ، وعمل لها بستانا حمل اليه الأشجار من دمشق وغيرها ، فصار به عامة فواكه الشام ٠ وحفر الخليج الناصرى ، خارج القاهرة ، حتى أوصله الى سرياقوس ، فعمر على هذا الخليج عدة قناطر منها قنطرة عند الميدان أنشأها الفخر ناظر الجيش ، وقنطرة قدادار والى القاهرة ، وغير ذلك ، فصار بجانبى الخليج عدة بساتين ، وعمرت به أرض الطبالة بعد خرابها من أيام العادل كتبغا ٠

وعمرت فى أيام السلطان الناصر جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رملا ترمى بها المماليك النشاب ، وتلعب فيها الأمراء بالكرة ، فصارت كلها دورا وقصورا وجوامع وأسواقا وبساتين وبلغت البساتين بجزيرة الفيل زيادة على مائة وخمسين بستانا ، بعد ما كانت نحو العشرين بستانا . واتصلت العمارة على ساحل النيل من منية الشيرج الى جامع الخطيرى الى حكر ابن الأثير وزريبة قوصون الى منشأة الكتبة ومنشأة المرانى الى بركة الحبش ، حتى كان الانسان يتعجب لذلك ، فانه كان يعهد هذا كله تلال رمل وحلفاء ، فصار لا يرى فيه قدر ذراع الا وفيه بناء .

وعمرت فى أيامه أيضا القطعة التى فيما بين قبة الامام الشافعى الى باب القرافة ، بعد ما كانت فضاء لسباق خيل الأمراء والأجناد والخدام ، فتحصل به اجتماعات جليلة للتفرج عليهم ، الى أن أنشأ السلطان تربة الأمير بيبغا التركمانى ، فعمر ذلك كله تربا وخوانك حتى صارت العمائر متصلة من باب القرافة الى بركة الحبش لا يوجد بها قدر ذراع بغير عمارة . وتنافس الأمراء فى ذلك حتى بلغوا فى عمارته مبلغا عظيما الى الغاية .

وعمر فى أيامه أيضا الصحراء التى فيما بين القلعة وخارج باب المحروق الى قبة النصر وكان هناك ميدان القبق من عهد الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان

وعمل الموكب به ، وبرسم سباق الخيل ، وأول من عمر فيه الأمير قراسنقر بربه وعمـــل لها حوض ماء للسبيل يعلوه مسجد ثم اقتدى به الأمراء والأجناد وغيرهم حتى امتلأ الميدان من كثرة العمائر ٠

وعمر السلطان لمماليكه عدة قصور : منها قصر الأمير طقتمر الدمشقى بحـــدره البقر وبلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهم ، فلما مات طقتمر أنعم به السلطان على الأمير طشتمر حمص أخضر ، فزاد فيه ٠ ومنها قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل ، فعمل أساسه أربعين ذراعا ، وارتفاعه عن الأساس مثلها فزاد مصروفه على ألف ألف درهم ٠ ومنها الكبش حيث كانت عمارة الملك الصـــالح نجم الدين أيوب ، فعمله السلطان سبع قاعات برســـم نزول بناته وسراريه فيها للتفرج على ركوب السلطان الى الميدان الكبير ، ولم ينحصر ما أنفق فيها لكثرته ٠ ومنها اصطبل الأمير قوصون بسوق الخيل تحت القلعة ، حيث كان اصطبل الأمير سنجر البشمقدار ، واصطبل ســـنقر الطويل ٠ ومنها قصر بهادر الجوبانى بجوار زاوية البرهان الصائغ بالجسر الأعظم تجاه الكبش ومنها قصر قطلوبغا الفخرى ، وقصر الطنبغا الماردينى وقصر يلبغا وهو أجل ما عمره من القصور ، من صرف على أساسه خاصا عن ثمن جير وحجر وأجرة مائة وثلاثين ألف درهم وعمـــل نزوله فى الأرض ثلاثين ذراعا ، واحتيج فيـــــه الى زنة

عشرة آلاف درهم لازورد لدهان سقوفه ثمنها مائة الف درهم .

وعمر الأمراء فى أيام السلطان الناصر عدة دور ، منها دار الأمير أيدغمش أمير آخور ، ودار آقبغا ، ودار طقزدمر ، ودار بشستاك على النيل - وهى تشتمل على ربع كبير فوق زريبة بجوار جامع طيبرس - وقصر بشستاك بالقاهرة وقد ذكرت هذه القصور والدور فى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار ذكرا مستوعبا لأخبارها .

وكانت للسلطان عناية كبيرة ببلاد الجيزة ، وعمل على كل بلد بها جسرا أو قنطرة ، وكانت أكثر بلادها تشرق لعلوها ، فعمل جسر أم دينار فى ارتفاع اثنتى عشر قصبة ، أقام العمل فيه مدة شهرين ، فحبس الماء حتى رويت تلك الأراضى كلها ، وعم النفع بها وقوى بسبب هذا الجسر الماء حتى حفر بحرا يتصل بالجيزة ، وخرج فى أراضيها عدة مواضع زرعت بعد ما كانت شاسعة ، أخذ منها قوصون وبشتاك وغيرهما عدة أراضى عمروها ووقفوها ، واستجد السلطان على بقيتها ثلاثمائة جندى .

واستجدت فى أيامه عدة أراضى بنواحى الشرقية وقوة وشباس ، وأقطعت لعدة أجناد . وعمل أيضا جسر شيبين ، فزاد بسببه خراج الشرقية . وعمل جسر خارج

القاهرة حتى رد النيل على منية البشيرج وغيرها ، وعمرت بسببه بساتين جزيرة الفيل وكثر عددها .

وأحكم السلطان عامة أرض مصر قبليها وبحريهـا بالترع والجسور حتى أتقن أمرها ، وكان يركب اليهـا برسم الصيد فى كل قليل ، ويتفقد أحوالها وينظر فى جسورها وترعها وقناطرها بنفسه بحيث أنه لم يدع فى أيامه موضعا منها حتى عمل فيه ما يحتاج اليه .

وكان له سعد فى جميع أعماله ، فكان يقترح المنافع من قبله ، بعـد أن كان يزهده فيما يأمـر به حذاق المهندسين . ويقول بعضهم « ياخوند !! . الذين جاءوا من قبلنا لو علموا أن هذا يصح فعلوه » ، فلا يلتفت الى قولهم ويفعل ما بدا له من مصالح البلاد ، فتأتيه أغراضـه على ما يحب ويختار ، فزاد فى أيامه خـراج مصر زيادة هائلة فى سائر الأقاليم . وكان اذا سـمع بشراقى بلد أو قرية من القرى أهمه ذلك ، وسأل المقطع بها عن أحوال القرية المذكورة غير مرة ، بل كلما وقع بصره عليـه ، ولا يزال يفحص عن ذلك حتى يتوصل الى ريها بكل ما تصل قدرته اليه . كل ذلك وصاحبها لا يسـأله فى شىء من أمرها ، فيكلمه بعض الأمراء فى ذلك فيقول « هذه قريتى ، وأنا الملزوم بها والمسئول عنها » فكان هذا دأبه . وكان يفرح اذا سأله بعض الأجناد فى عمل مصلحة بلده بسبب عمل جسر أو تقاوى أو غير ذلك ، وينبل ذلك الرجل فى

عينه ، ويفعل له ما طلبه من غير توقف ولا ملل فى اخراج المال ، فان كلمه أحد فى ذلك فيقول « فلم يجمع المال فى بيت مال المسلمين الا لهذا المعنى وغيره ؟ » فهذه كانت عوائده . وكذلك فعل بالبلاد الشامية ، حتى أن مدينة غزة هو الذى مصرها وجعلها على هذه الهيئة ، وكانت قبل كآحاد قرى البلاد الشامية ، وجعل لها نائبا ، وسمى بملك الأمرا ، ولم تكن قبل ذلك الا ضيعة من ضياع الرملة ، ومثلها فكثير من قرى الشام وحلب والساحل يطول الشرح فى ذكر ذلك .

وأنشأ السلطان الناصر الميدان الكبير على النيل ، وخرب ميدان اللوق الذى أنشأه الظاهر بيبرس ، وعمله بستانا حملت اليه الأشجار من دمشق وغيرها ، فكانت فواكه تحمل الى الشراب خاناه السلطانية . ثم أنعم به على الأمير قوصون ، فبنى تجاهه على الزريبة المعروفة بزريبة قوصون ووقفهما .

واقتدى به الأمراء فى العمارة ، فأخذ قوصون بستان بهادر رأس نوبه ـ ومساحته خمسة عشر فدانا ـ وحكره للناس ، فبنوه دورا وعرف بحكر قوصون . وحكر السلطان حول البركة الناصرية أراضى البستان فعمره الناس وسكنوا فيه . وحكر الأمير طقزدمر بجوار الخليج بستانا مساحته ثلاثون فدانا ، وبنى له قنطرة عرفت به ، وعمل هناك حماما وحوانيت ، فصار حكرا

عظيما للمساكين . وحكر الأمير آقبغا عبد الواحد بستانا بجوار بركة الفيل ، فعمره عمارة كثيرة بعد ما كان مقطع جميع ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة طريق ، فصار قدر مدينة كبيرة . وأخذ بقية الأمراء وحكروها ، وحكرت الدادة حدق ـ وهى المعروفة باسم ست مسكة القهرمانة ـ حكرين عرفا بها ، فجاءوا من أحسن الأحكار ، وأنشأ لكل واحد منهما جامعا تقام به الجمعة ، فأنافت الأحكار التى استجدت فى أيامه على ستين حكرا حتى لم يوجد موضع بحكر . واتصلت العمارات من خارج القاهرة الى جامع ابن طولون والمشاهد ، وقد ذكرنا أيضا هذه الأحكار فى كتاب المواعظ والاعتبار ذكرا شافيا .

وفى أيامه عمر الأمير قوصون بالقاهرة وكالة حيث كانت دار تعويل البوعانى ، وعمر الأمير طشتمر حمص أخضر ربعا بجوار حدرة البقر ، وهو الذى عمر قيسارية الحريريين بجوار الوراقين من القاهرة . وعمر الأمير بكتمر الساقى بمدينة مصر ربعين وحوانيت على النيل ودار وكالة ومطابخ سكر ، وعمر الأمير طقزدمر دار التفاح خارج باب زويلة والربع الذى فوقه .

وتجددت عدة جوامع فى أيامه أنافت على ثلاثين جامعا : منها الجامع الناصرى بقلعة الجبل ، جدده السلطان الناصر وأوسعه ، والجامع الجديد الناصرى ظاهر مصر

على النيل ، وجامع المشهد النفيس ، وجامع الأمير كراى المنصورى بآخر الحسينية وجـــامع الأمير طيبرس نقيب الجيش على النيل بجوار الخانكاه ، وهو الذى عمر أيضا مدرسة بجوار الجامع الأزهر بالقـاهرة ، وجامع الأمير بدر الدين محمد بن التركمانى بالقرب من باب البحر ، وجامع الفخـر ناظر الجيش على النيـل فيما بين بولاق وجزيرة الفيل .

وهو الذى عمر جامعـــا آخر خلف خص الكيـــلة ببولاق ، وجامعا ثالثا بالروضة ، وجـــامع كريم الدين خلف الميدان ، وجامع شرف الدين الجاكى بسويقة الرئوى ، وجامع الأمير قيدان الرومى بقناطر الوز ، وجامع دولت شاه مملوك العلائى بكوم الريش ، وجامع الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك بطرف الحسينية ، وجامع ناصر الدين الحرانى الشرابيشى بالقرافة ، وجامع الأمير آقسنقرشاد العمائر قريبا من الميدان ، وجامعا خارج بـاب القرافة عمره جماعة من العجم ، وجامع التوبه بباب البرقيـة ـ عمره مغلطاى أخوه الأمـير الماس ـ وجـــامع بنت الملك الظاهر ببيبرس بالجزيرة المستجدة ، وعمر ما حوله أملاكا كثيرة ، وجامع الأمير الماس بالقرب من حوش ابن هنس ، وجامع الأمير قوصون خارج القاهرة ، وجامع خـــارج باب القرافة ، وجامع الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى على النيل ببولاق ، وجامع أخى صـــاروجا بشون القصب ،

وجامع الحاج ال ملك بالحسينية ، وجامع الأمير بشتاك على بركة الفيل تجاه خانكاه ، وجامع ست حدق فيما بين قنطرة السد وقناطر السباع ، وجامع ست مسكه قريب من قنطرة آقسنقر ، وجامع الأمير الطنبغا الماردينى خارج باب زويله ، وجامع مظفر الدين بن الفلك بسويقة الجميزة من الحسينية ، وجـــامع جوهر السحرتى قريبا من باب الشعرية ، وجـــامع فتح الدين محمد بن عبـــد الظاهر بالقرافة .

واستجد بدمشق فى أيام السلطان الناصر أيضـا جامع كريم الدين ، وجامع شمس الدين غبريال ، وجامع الأفرم ، وجامع تنكز وجامع يلبغا .

* * *

وبعد فان مؤلفات المقريزى وغيره من قدماء المؤلفين السابقين فى مصر لاتزال توصف بأنها كتب صفراء باهتة المعرفة ، مع العلم بأنها كتب سبقنا المستشرقون الى كتابة تاريخنا منها ، فى مؤلفات أوربية بيضاء ناصعة المعرفة . وأقول ان هذه الكتب العربية القديمة الحافلة بأصـــول التاريخ المصرى ليست باهتة المعرفة كمـــا ينعتها بعض الناعتين المحدثين ، بل تشف بمحتوياتها عن ألوان زاهية مضيئة لمعرفة مصر وأهلها فى العصور الوسطى ، وهى معرفة واجبة علينا للذين نضن أبناؤهم . ولا سبيل الى

انكار هذه المعرفة الواجبة ، أو التنكر لهـا أو جحودها أو تصغير شأنها في تكويننا الحاضر والمستقبل . وربما يقول بعض القائلين أن مقتضيات الحياة الحديثة تتطلب الاستمداد الثقافي من المؤلفات الغربية الحديثة فحسب ، لا من الكتب الشرقية القديمة وأشباهها مما طال عليه سالف الأمد . وعندي أنه ينبغي على الشرق الأوسط ان يأخذ من قديم الشرق وحديث الغرب معا ، على قاعدة الاختيـار والاقتباس المستنير من المنبعين مع الملائمة والاعتدال .

ومن البديهي أن الاقتباس من المنبع الشرقي معناه احياء كتب التراث القديم في مختلف العلوم والفنون ، بالنشر السليم ، واستخدامها على نحو ما فعل المستشرقون قبلنا . ومن البديهي كذلك أن القنوع بالاسـتمداد من المؤلفات الغربية الحديثة ، يجعل البناء الثقافي في الشرق العربي على أساس طارىء عليه ، وهو أخطر أنواع البناء عند أساتذة علم النفس التربوي والاجتماعي .

---

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٧٦/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3970 — X